الجغرافيا كفلسفة المكان

تيم كريسويل

ترجمة بتصرف
أ.د. مضر خليل عمر

مقدمة

غالبًا ما يصل الجغرافيون المحتملون إلى الجامعة مُعلنين اهتمامهم بالأماكن ، وليس بالمكان نفسه . تسعى هذه المقالة إلى تشجيع التفاعل مع المكان كفكرة في المرحلة الثانوية وما بعدها . تتساءل المقالة عن ماهية المكان ، وكيف تطور على مدى الأربعين عامًا الماضية من قِبل الجغرافيين وغيرهم ، وكيف يُمكن لأفكارنا عن المكان أن تُثري فهمنا لقضايا المجتمع المعاصر . يُوضح القسم الأخير من المقالة هذه القضايا من خلال النظر في كيفية تأثير مفاهيم المكان على مناهجنا في التعامل مع الشوارع التجارية البريطانية ، وسياسات الهجرة ، والعلاقات المتبادلة بين الوسائط الرقمية والمشهد المادي . تُجادل المقالة بضرورة التطرق مُبكرًا للجغرافيا كفلسفة من أجل إثراء وتنشيط المواضيع المألوفة في الجغرافيا المعاصرة .

يُعد المكان أحد أهم فكرتين أو ثلاث أفكار في الجغرافيا (كريسويل، ٢٠٠٤). على مستوى المنطق السليم ، يُعدّ هذا الموضوع جوهر اهتمام العديد من الطلاب بدراسة الجغرافيا في المدرسة أو الجامعة . لقد أجريتُ مقابلات مع طلاب محتملين على مدار السنوات العشر الماضية تقريبًا ، وكانت الإجابة الأكثر شيوعًا عن سؤال سبب رغبتهم في دراسة الجغرافيا هي الاهتمام بالأماكن والفرق بينها . وليس من المستغرب ، ربما ، أن هذا الاهتمام بالمكان لا يتعلق بمفهوم نظري عميق حول ماهية المكان كمفهوم . هذا ما نأمله في نهاية الدرجة ! ومع ذلك ، فإن التفكير في المكان على مستوى أعمق سيسمح لطلاب المستوى المتقدم برؤية كيف تتدخل فلسفة الجغرافيا بالفعل في كيفية فهمنا لقضايا جغرافية سطحية متنوعة ، مثل الشارع البريطاني المعاصر، وسياسات الهجرة ، واستخدام وسائل الإعلام الجديدة مثل الهواتف المحمولة وبيئات البرامج الغامرة.

لذا ، فإن الغرض من هذه المقالة هو تشجيع الطلاب والمعلمين على التفكير في معنى المكان وكيف يؤثر ذلك على فهمنا للقضايا الاجتماعية والثقافية المعاصرة . ورغم أن المكان ليس موضوعًا يتصدر الصفحات الأولى لصحفنا باستمرار (على عكس ، على سبيل المثال ، المواطنة أو الهجرة) ، إلا أنه يُشكل خلفية حاسمة ، وغالبًا ما تكون غير مُشكلة ، لوجود القرن الحادي والعشرين (وغالبًا ما يستند فهم الحجج المتعلقة بالمواطنة أو الهجرة إلى افتراضات حول المكان) . لننظر إلى قصة حديثة نشرتها صحيفة "أوبزرفر" حول خطط لعمل فني عام جديد ، سيُقام للعرض الدائم في جنوب شرق إنجلترا . في أوائل عام 2008 ، أُعلن عن تكليف بناء عمل فني عام ضخم - "ملاك الجنوب" أو معلم إبسفليت - ليُطل على محطة إبسفليت للنقل في كينت . يُذكرنا عنوان "ملاك الجنوب" بتمثال أنتوني غورملي الشهير، "ملاك الشمال" ، في غيتسهيد في شمال شرق إنجلترا .

نصّت دعوة تقديم المقترحات للتمثال الجنوبي الجديد على أن يكون ارتفاعه ضعف ارتفاع نظيره الشمالي على الأقل . إبسفليت جزء من المنطقة التي أصبحت تُعرف باسم بوابة التايمز ، وهي منطقة تقع شرق لندن ، وأصبحت نقطة دخول إلى المدينة لخط قطار يوروستار فائق السرعة من باريس وبروكسل . كما أنها موقع لمدينة جديدة مُخطط لها ، سيتم بناؤها وفقًا للمبادئ الخضراء . هذا الجزء من كينت منطقةٌ ذات حركةٍ عابرة ، تتميز بسكانٍ مهاجرين تاريخيًا ، من جامعي القفزات إلى المهاجرين الجدد . فلماذا إذًا

بناءُ مثل هذا العمل الفني الضخم في هذا المكان ؟ تقدم راشيل كوك ، الصحفية في صحيفة الأوبزرفر، إجابةً مقنعةً (كوك، 2008). فهي تُشير إلى أنه تعريفٌ للمكان - طريقةٌ للقول إن هذا المكان مختلفٌ ومميز. وتُقارن بناءَ مثل هذا العمل الفني العام بممارسة التسوق ، فيما تراه مشهدًا تجاريًا متجانسًا بشكل متزايد ، يُمثله مركز بلووتر للتسوق في إبسفليت . "بطريقةٍ ما، بالطبع ، هذه هي الطريقة التي نُعرّف بها أنفسنا : الجميع يعرف ما تُعبّر عنه الأريكة من دلالاتٍ خفيةٍ عن صاحبها ، وما يُمكن أن تُشير إليه قصة البدلة . ولكن ، كنظرية ، فهي أيضًا مليئةٌ بالثغرات .

من جهة ، حتى أكثر المتسوقين تفانيًا لا يستطيع تمييز نفسه في عالم سلاسل المتاجر . ومن جهة أخرى ، على الرغم من أن بريطانيا الحضرية تبدو متشابهة بشكل متزايد أينما ذهبت ، إلا أن هذا مجرد سطح . فخلف ستائر إيكيا ، ما يزال المكان ينبض ، قلبًا ينبض ، حتى لو أصبح الاستماع إليه أكثر صعوبة كل ساعة (كوك، ٢٠٠٨، ص ١٣) . يقترح كوك أنه بينما يُخمد التسوق حيوية المكان بجعل الأشياء أكثر تشابهًا ، يُمكن للفن العام أن يُعيده إلى الحياة - ليُضفي عليه طابعًا مميزًا . "هنا يأتي دور الفن العام . فالأفضل ليس مجرد جمال أو حركة في حد ذاته ؛ فمع تسارع تعلمنا ، يُمكنه أن يروي قصة عن مكان ، ويُجسد جوهره الحسي ، بطريقة لا يُمكن لرجال الإعلان - "زُر هارلو المشمسة !" - إلا أن يحلموا بها . هذا ما يفعله الملاك ، ويأمل القائمون على إيبسفليت أن يُحقق منحوتتهم سحرًا مماثلًا" (كوك، ٢٠٠٨، ص ١٣). تُمثل مسألة "الجوهر الحسي للمكان" جوهر العديد من القضايا الرئيسية في الحياة في القرن الحادي والعشرين . قبل النظر في بعض هذه المسائل ، من الضروري تعريف المكان.

تعريف المكان

يُعد تعريف المكان ، كأي مفهوم ، محل خلاف . لكن في جوهره ، يكمن مفهوم وجود مساحة جغرافية ذات معنى . نميل إلى التفكير في الأماكن كمستوطنات - أكسفورد أو بيفرلي هما بوضوح مكانان . كما نعد مناطق المدن أو الأحياء - بريكستون أو القدس ، على سبيل المثال – أماكن . وفي سياق أقرب ، تُسمى الأماكن العامة المعروفة - ميدان ترافالغار أو قلعة إدنبرة . قد نشير إلى مطعم أو مقهى على أنه "مكان مفضل" . كما نستخدم تعبيرات مثل "معرفة المرء بمكانه" أو "وضعه في مكانه" للإشارة إلى تفاعل أكثر تجريدًا وأقل قابلية للتحديد - بين الاجتماعي والجغرافي . لدينا أماكن مُجهزة على الطاولة ، وقد نعرف أيها لنا .

وراء مستوى المدينة ، ربما يكون من الأصعب عد مدينة كبرى مثل لندن أو نيويورك مكانًا . وماذا عن المنطقة أو الأمة حتى ؟ الأمة ليست مجرد أرض مشتركة ، بل هي مساحة يُشجع الناس على الشعور بالارتباط بها . تدور العديد من النقاشات حول مكانة بريطانيا في الاتحاد الأوروبي حول ماهية المكان الذي تُمثله الأمة . فإلى جانب حجم الأمة ، تعمل جماعات النشطاء البيئيين على جعلنا نفكر في الأرض كمكان - كموطن للبشرية - بدلاً من كونها مساحةً للاستغلال . فالمكان ، إذًا ، ليس مُحددًا بمقياس . فقد يكون صغيرًا كطاولة طعام ، أو كبيرًا كمساحة الأرض . والافتراض الشائع بأن المكان مستوطنة ليس سوى أحد تعريفات المكان ، وليس الأكثر إثارة للاهتمام . فعن ماذا نتحدث إذًا عندما نتحدث عن المكان ؟

ركزت التعريفات الجغرافية للمكان منذ سبعينيات القرن الماضي على الجمع بين الموقع (نقطة موضوعية قابلة للتحديد في الفضاء) والمعنى (أغنيو، ١٩٨٧؛ توان، ١٩٧٧؛ كريسويل، ٢٠٠٤). فالأماكن مواقع ذات معنى . يمكن توضيح ذلك من خلال ملاحظة أن خط العرض 51° 30’ 18” شمالًا ، وخط الطول 0° 1’ 9” غربًا هو موقع ، بينما دوكلاندز لندن هي مكان . وبينما يشتركان في الموقع الموضوعي نفسه ،

فإن دوكلاندز لندن هي مكان يضم كناري وارف ، ومتحف دوكلاندز، ومبانٍ مكتبية ، ومطاعم راقية ، وخط سكة حديد خفيف عالي التقنية . لدوكلاندز أيضًا ماضٍ . فقد كان مكانًا مرتبطًا بالأرصفة ، وبالعبودية ، وبالطبقة العاملة ، وبقرون من الهجرة . خارج المتحف ، لا يظهر سوى القليل جدًا من هذا الماضي. فبالإضافة إلى كونه موقعًا ، يتمتع المكان بمظاهر طبيعية (مباني ، وحدائق ، وبنى تحتية للنقل والاتصالات ، ولافتات ، ونصب تذكارية ، وما إلى ذلك) ، والأهم من ذلك ، "إحساس بالمكان" .

يشير الإحساس بالمكان إلى المعاني ، الفردية والمشتركة ، المرتبطة بالمكان . في حين أن هذا المزيج من الموقع والمظاهر الطبيعية والمعنى قد يكون واضحًا في المستوطنة ، إلا أنه أقل وضوحًا في الأماكن ذات النطاقات الأصغر . ولكن حتى الكرسي المفضل له موقع محدد (أمام المدفأة ربما) ، وهيكل مادي (مساند ذراع مهترئة ، أرجل متذبذبة) ، ومعانٍ (ربما يكون هو المكان الذي كان يجلس فيه والدك عندما كان يقرأ لك القصص في طفولتك) . الأماكن ليست بالضرورة ثابتة في الفضاء . على سبيل المثال ، قد يتشارك طاقم صيادين سفينةً لشهور متواصلة ، وتصبح بمثابة موطنٍ لهم أثناء تنقلهم . إن القول بأن المكان يشغل موقعًا لا يعني بالضرورة أنه ثابت . أينما كانت السفينة في أي لحظة ، فهي ما تزال تقع في مكان ما على الأرض . **الأماكن ، إذًا ، هي مجموعات محددة من الأشياء المادية التي تشغل جزءًا معينًا من الفضاء ، ولها مجموعات من المعاني المرتبطة بها.**

كيف استخدم الجغرافيون مصطلح "المكان" ؟

سواء اتفقنا مع وجهة نظر كوك المتفائلة بشأن الجوانب الجغرافية لعمل فني بقيمة مليوني جنيه إسترليني أم لا ، فقد أشارت إلى ما ينبغي أن يكون محورًا رئيسيًا لدراسة الجغرافيا على جميع المستويات - إنشاء المكان وصيانته وتحويله . لكن المكان ما يزال مفهومًا غامضًا إلى حد ما . لطالما استخدم الجغرافيون كلمة "مكان" ، ولكن لها تاريخ حديث نسبيًا كمفهوم تم استكشافه في حد ذاته . لطالما اهتم الجغرافيون بالأماكن ، وليس بـ"المكان" . برز الاهتمام الجغرافي الحديث بفكرة المكان في سبعينيات القرن الماضي مع ظهور الجغرافيا الإنسانية التي أصرت على ضرورة اهتمام الجغرافيين بالتجربة الذاتية للناس في عالم الأماكن (توان، 1977؛ رالف، 1976) . وكانوا يستجيبون للجغرافيا البشرية في ستينيات وسبعينيات القرن الماضي التي اتسمت بنهج علمي أكثر .

ولجعل الجغرافيا البشرية إنسانية بالكامل ، جادل الإنسانيون بأن على الجغرافيين أن يكونوا أكثر وعيًا بالطرق التي نجلب بها مجموعة إنسانية خاصة من المشاعر والمعتقدات إلى تفاعلاتنا مع العالم المادي . ويشكل مفهوم المكان جوهر هذا الوعي . فبالإضافة إلى الإشارة إلى الأشياء في العالم (الأماكن) ، يصف المكان طريقةً للتواصل مع العالم . والمفتاح هنا هو فكرة "التجربة" . إن مفهوم التجربة هذا هو جوهر النهج الإنساني للمكان . لم تكن أفكار مثل "التجربة" واردة في قاموس الجغرافيين البشريين في أوائل سبعينيات القرن الماضي ، الذين كانوا يبنون الجغرافيا البشرية كـ"علم مكاني" . لم يكن علماء المكان مهتمين كثيرًا بكيفية ارتباط الناس بالعالم من خلال التجربة ؛ بل كانوا يميلون إلى عد الناس أشياءً أو كائنات عقلانية .

لم تكن هذه الكائنات العقلانية "تختبر" العالم ، ولم يكن الجغرافيون الذين يدرسونها ، وما يزالون ، مهتمين بالتأكيد بكيفية تجربتهم له . لذلك ، كان التركيز على التجربة ثوريًا . فبينما أراد علماء المكان فهم العالم والناس فيه بموضوعية ، بطريقة تُساوي الناس بالصخور أو السيارات أو الجليد ، ركز الجغرافيون الإنسانيون على العلاقة بين الناس والعالم من خلال مجال التجربة . وكما كتب الجغرافي الإنساني الرائد ، يي فو توان : "لا يمكن معرفة المعطى في حد ذاته . ما يمكن معرفته هو واقع هو بناء من..." التجربة ،

خلقٌ من المشاعر والفكر (توان، ١٩٧٧، ص ٩) . لذا ، فإن التركيز على المكان يُعنى بكيفية وجودنا ، كبشر، في العالم - كيف نرتبط ببيئتنا ونُرسخها في مكانها .

لم يكن الإنسانيون الجغرافيين الوحيدين الذين عارضوا الحسابات الجامدة لعلم المكان . في ثمانينيات القرن الماضي ، بدأت مجموعة واسعة من المناهج الراديكالية المستوحاة من الماركسية والنسوية ، ولاحقًا ما بعد البنيوية ، في تطوير نهج نقدي للجغرافيا البشرية ، مما أثار تساؤلات حول كل من العالم اللاإنساني للعلوم المكانية والذاتية المريحة للإنسانية (هارفي، 1989؛ روز، 1993؛ كيث وبايل، 1993). وجادلوا بأن المكان لا يقتصر على الشعور الإيجابي بالارتباط والتجذر فحسب ، بل يرتبط أيضًا بالسلطة . فالأماكن أشياء مُبتكرة ، وتميل إلى عكس أو التوسط في المجتمع الذي يُنتجها . وكما قد يخلق الطفل مكانه المفضل من زاوية غرفة نومه ، فإن الشركات والدولة وأصحاب السلطة يخلقون أنواعًا أكبر بكثير من الأماكن . هذه هي الأماكن التي يجب أن نعيش فيها .

ويشير الماركسيون إلى أن رأس المال يحتاج إلى التداول عبر أماكن تُمثل أشكالًا ثابتة نسبيًا من الاستثمار . تتنافس المدن والبلدات كأماكن لجذب الاستثمارات نحوها وبعيدًا عن أي مكان آخر. وبالمثل ، تعكس رمزية المكان أنواع الصور التي يرغب أصحاب النفوذ النسبي في المجتمع في إبرازها . لنأخذ منطقة دوكلاندز كمثال . من الواضح أن أنواع الهياكل المادية التي تجعلها فريدة (أطول ثلاثة مبانٍ في بريطانيا ، والمقاهي ، وسكة حديد دوكلاندز الخفيفة) هي نتاج فئة معينة من الناس ذوي المصالح الخاصة : بشكل عام ، قوة الأعمال التجارية وانسيابية رأس المال (سميث، 1991) . وبالمثل ، فإن المعاني المتوقعة لهذا المكان (قوة المؤسسات المالية في لندن ، والحداثة الأنيقة) هي المعاني المفضلة للمجموعات المهيمنة.

وأخيرًا ، فإن أنواع الأنشطة التي يقوم بها الناس هناك (التنقل إلى مباني المكاتب بإيقاع يومي ، وارتداء بدلات أنيقة ، واحتساء قهوة لاتيه) تجعلها المكان الذي هي عليه . هذا المزيج من المادة والمعنى والممارسة يجعل المكان مختلفًا تمامًا عما كان عليه قبل 60 عامًا ، عندما كان معروفًا بمنازله الصغيرة المتدرجة ، ونقص الاستثمار في البنية التحتية ، ومجتمعه من الطبقة العاملة ، وفرص العمل في الموانئ ، وحاناته المحلية . وبينما قد يكون من الخطأ إضفاء طابع رومانسي على الماضي ، فمن الواضح أن هذا المكان مختلف تمامًا في الموقع نفسه . كان التحول مستمرًا ، ولكنه بلغ ذروته في ثمانينيات القرن الماضي في عهد حكومة مارغريت تاتشر .

أثار محو مكان للطبقة العاملة (والمهاجرين) احتجاجًا في ذلك الوقت ، ولكن بالنسبة للزائر العادي ، سيكون من الصعب معرفة ذلك الآن . كانت أنواع الأماكن التي وصفها الجغرافيون الإنسانيون في سبعينيات القرن الماضي تميل إلى أن تكون مريحة ومألوفة . المكان أمر إيجابي للغاية بالنسبة لكاتب مثل يي فو توان . ما تُظهره قصة دوكلاندز (والعديد من الأماكن الأخرى على مقاييس متعددة) هو أن المكان يُمكن بسهولة عده مُقيّدًا وإقصائيًا . بدأ الجغرافيون في تسعينيات القرن الماضي ، والذين يُرجّح استلهامهم من النسوية أو ما بعد البنيوية بقدر استلهامهم من الماركسية ، بالإشارة إلى العمليات الاجتماعية (خاصةً في ظل الرأسمالية) التي تُشارك في بناء الأماكن . جادلوا بأن الأماكن قد تبدو طبيعية ، لكنها في الواقع عكس ذلك تمامًا.

غالبًا ما يكون الهيكل المادي للمكان نتيجة قرارات يتخذها أصحاب النفوذ لخدمة غاياتهم . فمعظمنا ، في نهاية المطاف ، لا يُبنى إلا على نطاق صغير نسبيًا (ولكنه مع ذلك مهم) . كما أن المعاني المرتبطة بهذه الأماكن ، بقدر ما هي مشتركة ، من المرجح أن تكون معاني يُسندها إليها أشخاصٌ يتمتعون بالسلطة - الأشخاص الذين يبنون المباني والآثار وينقشون النصوص على النسيج المادي للمكان . كل هذا ينطوي على خيارات تستبعد الأشخاص والمعاني التي يمثلونها . إن ملاحظات كهذه هي التي دفعت ديفيد هارفي إلى كتابة ما يلي : "الخطوة الأولى على الطريق هي الإصرار على أن المكان ، مهما كان شكله ، هو ، مثل المكان

والزمان، بناء اجتماعي . السؤال الوحيد المثير للاهتمام الذي يمكن طرحه هو، **من خلال أي عملية (عمليات) اجتماعية يُبنى المكان؟**" (هارفي، 1993، ص 5).

هذه صورة مختلفة تمامًا عن نوع المكان الذي يسكن في نصوص الإنسانيين . بالنسبة للإنسانيين ، المكان ضرورة عالمية ومتعالية . لكي يكونوا ، كما يجادل البعض ، هو أن يكون المرء في مكانه . من ناحية أخرى ، يُصرّ هارفي على أن المكان غالبًا ما يكون رجعيًا - يُستخدم لاستبعاد أو حصر الآخرين الذين لا ينتمون إليه (هارفي، 1993) . ويشير إلى ظهور المجتمعات المُسوّرة في الولايات المتحدة ، وغيرها من التعريفات الدفاعية القائمة على المكان للمجتمع (مثل القومية الناشئة في البلقان آنذاك) ، والتي غالبًا ما تستند إلى تهديد خارجي يُمنع من الوصول إليه. هذا، إذن، هو الجانب المظلم للمكان.

كانت قضايا كهذه هي التي دفعت جغرافيي الثقافة النقديين في التسعينيات إلى استكشاف كيفية تورط الأماكن ومعانيها المرتبطة بها في عمليات الاستبعاد (سيبلي، 1995؛ كريسويل، 1996) . لقد جادلوا بأن العلاقة بين المكان والمعاني والممارسات والهويات الخاصة تؤدي إلى بناء أماكن معيارية حيث يُمكن أن يكون المرء إما "في مكانه" أو "خارج مكانه" . ويُقال إن الأشياء والممارسات والأشخاص الذين يُصنفون على أنهم "خارج مكانهم" قد تجاوزوا الحدود ، التي غالبًا ما تكون غير مرئية ، والتي تُحدد ما هو مناسب وما هو غير مناسب . نعلم جميعًا أنه لا يُفترض بنا أن نصرخ في مكتبة أو نسير عراة على طريق عام . توجد هذه القواعد غير المعلنة في عالم المنطق السليم .

إن هذه الطبيعة المنطقية للغاية للمعايير القائمة على المكان هي ما يجعلها أداة أيديولوجية قوية . وقد لوحظت هذه العملية المتمثلة في تحديد كيفية استبعاد "الآخرين" من خلال البنى المعيارية للمكان ، جسديًا و وجوديًا ، عبر مجموعة كاملة من الهويات ، بما في ذلك الطبقة والعرق والجنسانية والتشرد والجنس والإعاقة الجسدية (الإعاقة) (كيتشن، 1998؛ مايو 2000؛ فالنتاين، 1993). كشف الجغرافيون وغيرهم أيضًا كيف أن هذه البنى الاجتماعية للمكان تُنازع باستمرار، وتُخترق ، وتُقاوم من قِبل المهمّشين .

يتجمع الشباب في زوايا الشوارع أو يتزلجون على أثاث الشوارع ؛ ويجد المشردون طرقًا للعيش في أماكن غير مضيافة ؛ ويُعيد الفنانون تزيين المعالم الأثرية المعروفة لعكس المعاني الراسخة ؛ ويُقيم المثليون والمثليات ومزدوجي الميل الجنسي لقاءات حميمة في الأماكن العامة . مهما كانت أنواع الأماكن التي تُبنى ، فإنها لا تُنجز أبدًا ، وهي دائمًا مفتوحة للتساؤل والتغيير . تميل الأعمال الحديثة حول المكان إلى التأكيد على أن الأماكن ليست أشياء ثابتة ومحدودة وغير متغيرة ، بل هي مفتوحة ومبنية من قِبل الناس والأفكار والأشياء التي تدخلها وتخرج منها . وصفت دورين ماسي هذا النهج تجاه المكان بأنه "إحساس تقدمي" أو "عالمي" بالمكان (ماسي، 1993، 2004).

تُشير إلى أنه إذا نظرنا إلى المكان على أنه محدد بوضوح ومتجذر في تواريخ فردية ، فإن الناس يميلون إلى تحديد الأماكن على أنها "ملكنا" وليست "ملكهم" . وهذا يُشكل أساسًا لكراهية الأجانب ضيقة الأفق . أما إذا نظرنا إلى المكان تدريجيًا ، فإننا ندرك أن جميع الأماكن تُصنع وتُعاد صياغتها باستمرار من خلال تفاعلاتها السلسة مع العالم الخارجي ، وبالتالي، فهي أكثر ميلًا للترحيب بالغرباء والزوار والغرباء. بالإضافة إلى ذلك، فإن الأماكن ليست مجرد نتاج للخارج ، بل هي مكونات فاعلة فيه . وحتى لو كانت عملية عالمية ، كالعولمة ، يجب أن تُصنع في أماكن ، فلا بد أن تبدأ من مكان ما (ماسي، 2004).

ثلاثة أمثلة على المكان

في حين أن العديد من هذه القضايا المتعلقة بالمكان قد تبدو تجريدية تمامًا ، إلا أنها تكمن في صميم معنى العيش في القرن الحادي والعشرين . لننظر إلى ثلاثة أمثلة . **أولًا**، دعونا نعود إلى قصة ملاك الجنوب . وراء رواية راشيل كوك قلقٌ من أن الأماكن في القرن الحادي والعشرين أصبحت متجانسة . فأينما ذهبنا نرى ماكدونالدز وستاربكس . حتى في منازلنا نرى أنواع وأنماط الأثاث وأدوات المائدة والمواد الغذائية وغيرها من المنتجات نفسها التي توفرها شركات مثل إيكيا وتيسكو. ولهذا السبب ، تُشير إلى أنه أصبح من الصعب استشعار نبض المكان . وتعتقد أن الأعمال الفنية العامة هي إحدى الطرق التي يمكن من خلالها تصحيح هذا الوضع (وهو ادعاء مثير للجدل قد يخضع لتدقيق الطلاب في المدارس والجامعات).

هذه القصة مألوفة ، تأملوا المقتطف الاتي من تقرير حكومي بعنوان "هاي ستريت 2015" : "من المرجح أن تصبح فئات كاملة من المتاجر، بما في ذلك بائعي الصحف ومحلات البقالة غير الرمزية والمكتبات ، سمةً نادرةً بشكل متزايد في شوارعنا التجارية . بالإضافة إلى ذلك ، سيؤدي تجانس العرض إلى قلة المنتجات التقليدية أو المتخصصة المتاحة للمستهلكين" . في الأساس ، من المرجح أن يتطور الوضع الذي أبرزته مؤسسة نيو إيكونوميكس في "كلون تاون بريتن" . ومن المرجح أيضًا أن يتقلص نطاق الموردين . سيؤدي ذلك إلى تقليص نطاق المنتجات المعروضة ، مع فقدان العديد من المنتجات الإقليمية ، وتوحيد عروض التجزئة بشكل متزايد في جميع أنحاء البلاد (مجموعة المتاجر الصغيرة البرلمانية لجميع الأحزاب في مجلس العموم ، هاي ستريت 2015، ص 59، متاح على www.tescopoly.org/images//high%20street%20 ...

من الملاحظ أنه إلى جانب عد الآثار الاقتصادية والاجتماعية لسلاسل المتاجر مثل تيسكو ، يُركّز على جانب المكان ومشكلة التوحيد القياسي . وقد صاغت مؤسسة الاقتصاد الجديد مصطلح "مدينة بريطانيا المستنسخة" في تقريرها لعام 2004 (مؤسسة الاقتصاد الجديد، 2004). ويشير هذا المصطلح إلى الأماكن التي تهيمن فيها سلاسل المتاجر على الشوارع التجارية الرئيسية ، مع وجود نقص واضح في المتاجر المستقلة . وكانت مدينة إكستر الأسوأ في استطلاع عام 2005 ، حيث تم تحديد متجر واحد فقط في الشارع الرئيسي على أنه مستقل . وبينما يختار العديد من طلاب الجامعات التركيز على قضايا البيع بالتجزئة في أطروحاتهم ، فإنهم يهتمون في الغالب بالآثار الاقتصادية للتسوق خارج المدينة على المتاجر الصغيرة . ونادرًا ما تُؤخذ مسألة المكان في الحسبان .

أما القضية **الثانية** التي يمكن أن تُثريها مفاهيم المكان فهي الهجرة . ونادرًا ما تُغفل الهجرة عن الصفحات الأولى لصحفنا . في صميم فهمنا لسياسات الهجرة (بل والعنصرية أيضًا) يكمن فهمنا للمكان والتنقل . يدّعي معارضو الهجرة أن بريطانيا (أو جزءًا محددًا منها) هي "مكاننا" وأن المهاجرين يهددون بتخفيفه أو تلويثه . تُستخدم استعارات الفيضانات بشكل دوري لوصف آثار الهجرة . في أقصى الحدود ، توجد تعريفات دقيقة للمكان تُستخدم لمعارضة الهجرة - وهي لا تأتي دائمًا من الجهات المعتادة ، مثل الحزب الوطني البريطاني . لننظر إلى الرد الاتي على ادعاء منظمة أصدقاء الأرض بأن الجميع مواطنون عالميون ، وأن مكان إقامتهم لا علاقة له به : "بناءً على هذه الفرضية ، قد نفترض أن عدد سكان المملكة المتحدة قد يتزايد إلى 70، 80، أو 100 مليون... قد نقبل بأرضٍ مغطاة بتجمعات حضرية متعددة الثقافات ، سعداء بأن التكنولوجيا فائقة الكفاءة لا تضمن سوى حصص استهلاك عالمية عادلة ، مع تلبية احتياجات الجميع... وستُحرر مساحات شاسعة من الأراضي في أماكن أخرى ، ربما كينيا ، لتكون مناطق برية .

تكمن المشكلة الحقيقية في هذا السيناريو في أنه ينكر الشعور بالمكان والتراث والجذور الثقافية . سياسيًا ، هذا أمرٌ غير وارد ، وهو بيئة رديئة للغاية ، وهي بيئةٌ تتعلق أساسًا بالمكان "

هذا مأخوذ من موقع منظمة تُدعى "حملة البيئة السياسية". (http://eco.gn.apc.org/Population/immigration.html). يستخدم مفهوم "المنطقة الحيوية" - فكرة أن المناطق يمكن تعريفها طبيعيًا من خلال النظم البيئية أو مستجمعات المياه - لتحديد مفهوم المكان الذي تُرسم فيه السمات الثقافية على الظواهر الطبيعية . هنا، يُستخدم المكان لربط المجموعات الاجتماعية والثقافية بأماكن معينة خارج نطاقها ، والتي تكون ببساطة "خارج مكانها". إنها حجة ضد الهجرة البشرية . ولكن يمكن أيضًا استخدام المكان ومفهوم المكان لتقديم حجة معاكسة . في عام 2003، عُقد مؤتمر بعنوان "**مفهوم المكان**" في كارديف . جمع المؤتمر أكاديميين وفنانين للنظر في كيفية بناء أنواع جديدة من الأماكن من خلال حركة الناس في مواجهة تزايد التعصب والتمييز . هنا ، يكون مفهوم المكان المستخدم أكثر انفتاحًا على تنقل الناس والأفكار والممارسات . فبدلاً من تآكل المكان بسبب الهجرة ، يتم إثراؤه . إن التفكير في هذه القضايا يسمح للطلاب بالتفكير في فلسفة المكان - كيف تؤدي المفاهيم المختلفة للمكان إلى استنتاجات مختلفة حول مجموعة العمليات الموضوعية نفسها - حركة الأشخاص عبر الحدود .

المسألة **الثالثة** التي أود تناولها هنا هي التفاعل بين المكان المادي وظهور المشهد الرقمي . يمتلك جميع الطلاب تقريبًا خبرة في كلٍّ من التكنولوجيا الثابتة نسبيًا ، مثل أجهزة الكمبيوتر ، وتقنيات الهاتف المحمول الأحدث مثل الهواتف المحمولة وأجهزة iPod . وقد درس الجغرافيون وغيرهم آثار هذه التقنيات على المفاهيم الراسخة للمكان . ومن الحجج التي ساقوها أن ظهور الفضاء الإلكتروني قد أضعف العالم "الواقعي" باستبداله بشكل أكثر كمالًا . وهذا ، بالطبع ، جزء من الرؤى المستقبلية ، كما تُصوَّر في المسلسلات التلفزيونية الشهيرة (مثل "هولوديك" في مسلسل ستار تريك) والأفلام .

والآن ، توجد عوالم تفاعلية كاملة مثل "رونسكيب" و"الحياة الثانية" حيث يمكن للناس أن يعيشوا حياتهم ، ويقعوا في الحب ، ويديروا حملات سياسية ، ويحيوا حفلات موسيقية ، ويكسبوا المال . وهناك بالفعل مليونيرات جنوا ثرواتهم من بيع المنتجات الافتراضية في الفضاء الإلكتروني . وبالنسبة للكثيرين ، تُشير هذه البيئات الوسيطة إلى نوع من العزلة . تبدو هذه الوسائط غير مجسدة ، مفرطة في السلبية ، وغير واقعية . ومثل ماكدونالدز وستاربكس ، فإنها تهدد المكان كما نعرفه . أما الانتقال الأخير إلى الوسائط المتنقلة فهو مختلف تمامًا . تتيح لنا الوسائط المتنقلة التنقل عبر الأماكن عبر عوالم وسيطة في جيوبنا أو أيدينا . ويتزايد ترابط المكان الوسيط والمكان "الحقيقي" . في حين أن الإصدارات القديمة من الفضاء الإلكتروني على شاشة الكمبيوتر يمكن أن تحدث في أي مكان - وكانت منتشرة على نطاق واسع - فإن الأنواع الجديدة من الوسائط المكانية المتاحة على هواتفنا المحمولة (على الأقل أولئك الذين يستخدمون هواتف مزودة بنظام تحديد المواقع العالمي) خاصة بالمكان .

ويستخدم الفنانون بشكل متزايد الوسائط المكانية لإنشاء أعمال فنية وسيطة خاصة بالموقع ، مستوحاة من خصوصيات المكان (ينظر أعمال كريستيان نولد على www.softhook.com .) يُستكمل عالم الفضاء الإلكتروني المنفصل وغير المتجسد على شاشة الكمبيوتر الآن بعالم الوسائط الأكثر فوضويةً واعتمادًا على المكان ، والذي يتميز بخصائصه الخاصة وكثرة محتواه المكاني . ومن الأمثلة الشائعة على الوسائط المكانية عالم "التخزين المؤقت الجغرافي" ، حيث يستخدم اللاعبون نظام تحديد المواقع العالمي (GPS) لاكتشاف كنوز يخفيها لاعبون آخرون في مواقع محددة . جزء من اللعبة هو العثور على المكان ، وجزء آخر هو الاستمتاع بالبحث واكتشاف أماكن ربما لم تُكتشف لولا ذلك .

وقد أشار مالكولم ماكولو، أحد مراقبي العالم الرقمي ، مؤخرًا إلى أنه "يمكننا ، بل يجب علينا ، أن نُحسّن تصميم تكنولوجيا المعلومات العالمية بمواقف أكثر إيجابية تجاه المكان . يجب أن يتجاوز التصميم السياقي لتكنولوجيا المعلومات الآن نطاق المهام الفردية ليشمل العمارة والتخطيط الحضري وجغرافية الثقافة"

(ماكولو، 2006، ص 29) . لا شك أن "التفاعلات بين تكنولوجيا الاتصالات والشعور بالمكان" موضوع مثالي لطلاب الجغرافيا في القرن الحادي والعشرين.

الخلاصة

سعيتُ في هذه المقالة إلى تجاوز العلاقة الواضحة بين الجغرافيا والاهتمام بالأماكن . لا أرى أي سبب يمنع الطلاب من الالتحاق بالجامعة بفهم أساسي لفلسفة المكان ، كما هو موضح هنا . أود أن أرى الطلاب يصلون إلى المقابلة وهم مهتمون بـ"المكان" وليس مجرد "الأماكن" . الأمثلة الثلاثة التي ذكرتها في النهاية مألوفة للطلاب في سن السابعة عشرة ، ولكن ربما ليس بهذه الطريقة في التفكير . لا تُطرح جميعها كمجرد نقاشات حول الأماكن ، بل كقضايا صيغت من خلال تصورات جغرافية سابقة حول ماهية المكان . يمكن استخدام هذه الأمثلة كوسيلة لبدء نقاش حيوي حول معنى المكان . إن التفكير في المكان بهذه الطريقة يُتيح للطلاب الأدوات اللازمة لتجاوز تفاصيل دراسة حالة مُحددة ، والتعامل مع أي عدد من جغرافيات "العالم الحقيقي" بخيال وتفكير عميق.

بمعنى آخر، فإن تدريس المكان يتجاوز بكثير مجرد تدريس التسوق أو الهجرة أو الفضاء الإلكتروني ، مع أنه قد يتناول هذه الأمور أيضًا . كما أنه يُنتج قدرًا من التأمل الذاتي حول العلاقة بين البشرية وكوكب الأرض ، التي تُشكل جوهر هذا التخصص . من واقع خبرتي ، يُعدّ هذا أيضًا مسعىً مُنعشًا ومُحفزًا ، يجذب الطلاب إلى تخصص يبدو في كثير من الأحيان وكأنه يُمثل عدّ السيارات عند مفترق الطرق .